التحـــريم

الغَيرة ، وقانا الله نارها .

يروى فى الأساطير ، أن إبليس لمَّا أكلت نار الغيرة قلبه ، من آدم وسكناه فى الجنة ، وسجود الملائكة له ، وطيَّشت الغيرة عقله ، فقال لربه : أنا خير من آدم

﴿ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴾ .

(الأعراف الآية ١٢)

يروى أن إبليس ، أجهد نفسه فى تدبيرَ حيلة ، ليخرج بها آدم من الجنة ، ودبر أن تكون الحيلة ، توقع آدم فى العصيان ، فتوقعه فى غضب ربه . فيطرده من الجنة .

يروى أن إبليس ، اخترع المرآة ، وصنعها كبيرة ، على قدر نافذة واسعة ، وجاء حواء ، وما كانت تعرف الزجاج ، ولا المرآة ، ولا أنها تعكس الأشياء ، وقال يا حواءُ : أين آدم ؟ مالى أراه مشغولاً عنك ؟ إنى أراه يغيب ، فيطول غيابه ! فقالت حواءُ : إنه يا إبليس هناك ، فى روضة نائية من رياض الجنة ، يتعبد ويتأمل ، ويطيل السجود تحت عرش الله ، غارق فى تأملاته وتسبيحاته ، فلا خوف عليه من غيابه .

فقهقه إبليس ساخرًا من قولها ، هازئًا من غفلتها وبلاهتها ، واستغفال آدم إياها ، وأنه مشغول بحواء أخرى غيرها ، تزوجها ، ونعم فى جوارها ، وغرق فى السعادة بضرة متّعته فى رحاب فسيحة فى أطراف الجنة .

فوجمت حوّاءُ واندعرت ، وانخلع قلبها ، وما يخلع قلب المرأة إلا الضرة . وكذبت إبليس ، وغطت عينيها بيديها ، استبشاعا للخبر ، وقالت : يا إبليس ما خلق الله فى الجنة ، ولا فى العالم حواء لآدم غيرى .

وقهقه إبليس ، وقال : يا حواءُ يا بلهاءُ ، يا غافلة ، صدقينى ، فأنا آتٍ من هناك ، وقد رأيتهما بعينى ، يسرحان ويمرحان .

قالت حواءُ : أو أستطيع يا إبليس أن أراها بعينى ، فأصدقك !

فأدار إبليس المرآة أمام حواء فرأت وجهها وجسمها فى المرآة وصدقت أنها رأت بعينها ضرتها ، التى اختطفت آدم من أحضانها ، فبرد جسمها ، والتهب قلبها ، وطفرت الدموع من عينيها ، وفعلت الغيرة فعلها .

وهبت تجرى لتبحث عن آدم ، فاستوقفها إبليس ، ليهمس فى أذنها ، ويوسوس لها : إن آدم حين يراها من بعيد ، سيخفى حواء الجديدة . ويغرّك بأن يسجد ، ويطيل السجود ، حتى توقظيه ، فإذا سألته ، أنكر واستبعد . فإذا أصرَّ على إنكاره وجحوده فاستحلفيه ، وسيحلف ويحنث فى يمينه .

قالت حواءُ : يا إبليس ، أكثرتَ علىَّ ، وحيَّرتنى ، وما أستطيع أن أكلفه فوق يمين بالله إنه لمن الصادقين ! .

وقهقه إبليس قهقهة عالية صاخبة ، دوَّت فى أذنيها ، وقال يا حواءُ يا مسكينة ، إن آدم يهون عليه كل غال ، فى سبيل حواء الجديدة ، وأنا حزين عليك ، أفكر فى أمرك ، وسوء مصيرك إذا هجرك ، ومن ذا يكون لك إذا كان قد هجرك وغدر بك .

يا حواءُ : لا تستحلفيه ! ولكن ضيقى الخناق عليه ، وخذيه تحت الشجرة المحرمة ، واقطفى منها ثمرة وقدِّميها إليه ، فإن امتنع عنها وأبى أن يأكل منها ، كانت حواء الجديدة عروسا جديدة ، فاتنة زوجك ، خاطفة آدم ، وأكون قد صدقتك ، فلا تكذبينى فيما أقدم لك من نصيحة .

وإن أكل من الشجرة ، كان آدم صادقًا ، وكنت كاذبًا ، فلا أعود عليك بعدها بنصح ولا إرشاد .

* * *

وجرت حواءُ تبحثُ عن آدم فى جنبات الجنة فلما عثرت عليه ارتمت بين يديه ، شاكية باكية ، تلطم خدها ، وتندب حظها وتتهمه بالغدر والخيانة وتنذره بالوبال والنكال وتذكره أنه لها وحدها فكيف ، يشرك معها غيرها ؟ ويتزوج ضرة عليها ؟ .

فنفى آدم خبرها ، وعجب أن يرد هذا الخاطر على بالها ، وذكرها أن حواء واحدة فى الجنة ، وأنه لا نظير لها ، ولا مزاحم فى حبها .

وبكت ، ودمعت ، وأرسلت الزفرات ، والآهات ، وأطالت النحيب والعويل ، وآدم يطيب خاطرها ، ويربِّت عليها ، ويُذهب شَبَحَ الضرة عنها ، ويحلف لها ، وينقطع عن العبادة ، ويجلس جنبها .

ولكن نار الغيرة مستعرة ، فقالت : يا آدم ، دعْ أيمانك وحِلفانك ، يا آدم ، تعال تحت الشجرة المحرمة ، فهناك تظهر الحقيقة ! .

يا آدم هنا ، فى ظلالها ، وتحت ثمارها ، ولا تستطيع أن تكذبنى .

هنا يا آدم : تستطيع أن تريحنى ، وتطفئ نار غيرتى ، وتنفى الشك الذى يقتلنى ، إذا أكلت من هذه الشجرة !

وانزعج آدم من هول ما طلبت ، وذكرها أن الله حرمها عليهما ، وأن غضب الله لا شك محيق بهما .

ولكن الغيرة أعمت عينيها ، وابليس أجّج لهيبها ، وطمس على قلبها ، فصرخت وصاحت ، وردَّ الصدى صراخها وصياحها ، حتى لكأن الجنة قد ملئت حواءات تصرخ وتصيح معها .

ورق قلب آدم ، وأدفأ الحنين جسمه ، وسوَّخ عزمه ، وأسال عبرته ، وخشى على حواء أن تموت من غمها ، فانكبَّ عليها يقبلها ، ويمسح بخده دموعها ، وهى تمد يدها فى فمه بثمرة من ثمار الشجرة ، فأكلها .

فبدت لهما سَوْءاتهما ، وانكشف سترهما ، وحل غضب الله عليهما ،

﴿ وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾

(الأعراف الآية ٢٢)

وفعلت الغيرة فعلها ، فطردهما الله من الجنة ! .

* * *

وفعلت الغيرة فعلها ، فألهبت قلوب إخوة يوسف ، ابن ضرة أمهم ، فرموه فى الجب .

وألهبت الغيرة قلب سارة زوج سيدنا إبراهيم على ضرتها هاجر ، فحتمت على إبراهيم أن يأخذ هاجر وولدها إسماعيل ، ويرميهما فى الوادى الخراب .

وألهبت قلب أم المؤمنين عائشة بنت أبى بكر زوجة النبى ، على ضرتها السيدة خديجة ، حتى كانت تقول فيها : ما كانت إلا عجوزًا ، حمراء الشدقين .

وغارت السيدة عائشة ، من ضرتها جُوَيْرية الجميلة بنت بنى المصطلق ، حتى كانت

تقول : والله لقد كرهتها منذ رأيتها ، وكرهت أن تدخل على رسول الله ، فيرى من جمالها ما رأيت !

وغارت عائشة على النبى ، مثل قولة علىّ بن أبى طالب : يا رسول الله ، لا تحزن ، ففى النساء غيرها كثير ، وخرجت بعد أربعين سنة ، لحرب على فى موقعة الجمل .

* * *

وسرت عدوى الغيرة ، على رسول الله ، بين نسائه ، حتى إنَّهُنَّ غِرن جميعًا ، من مارية القبطية الجميلة ، التى لم يسكنها معهن فى المدينة ، وإنما أسكنها فى ضاحية العالية فى منزل أنيق ، تحيط به الزروع والكروم .

ووهب الله له منها الولد ، يوم لا ولد ، ويوم استبدت به اللهفة على الولد ، فأكثر من التردد عليها ، والمقام عندها ، ليشبع جوعة الخلف وليروى ظمأه ، ويشرب الرحيق من تقبيل ولده إبراهيم .

* * *

ومالك يا عائشة ، لا تستطيعين أن تخفى غيرتك يوم حمل النبى إليك ولده إبراهيم بين يديه ، فما باركت ، ولا بششت ، ولا أحسنت استقباله ! وأنت تعلمين أنه بلسم لجراح دامية فى قلب النبى ، وقد أشرف على الستين بلا ولد ، لا من عائشة ، ولا من حفصة ، ولا من صفية ، ولا من ميمونة ، حتى ولدا خديجة ، قد ماتا من قبل إبراهيم !

* * *

لقد سئمت حفصة بنت عمر ، زوجة النبى ، المقام على الغيرة ، فاستأذنت ، فى أن تزور أباها عمر فى داره ، فأذن لها .

وصادفت أن جاءت مارية القبطية من ضاحية العالية ، ودخلت على النبى ، فأنزلها فى منزل حفصة ، وهى غائبة .

وأحسَّت حفصة ، فأسرعت ورجعت ، ورأت ضرتها فى منزلها ، فغارت وحسبت أن ذلك إغاظة لها ، وامتهانٌ لكرامتها ، فغضبت ، ولسعتها الغيرة ، فبكت ، واحتجت ، ورفعت صوتها ، وقالت : أفى بيتى ، وعلى فراشى ، يا رسول الله !

والنبى لا يحب ذلك ، ويرى أن يسكت هذه الضرة الغيرانة ، ويرى أنها سوف لا تسكت إلا بمضارة ضرتها ، فأسرَّ فى أذن حفصة كلمة سرَّها إليها :

أيرضيك يا حفصة أننى حرَّمت على نفسى مارية أم إبراهيم !

ولكنْ يا حفصة ، إذا كان هذا فى مرضاتك ، فعليك أن تحتفظى بسرِّه ، لا تفشيه ولا تذيعيه .

ولِمَ كلّ هذا يا محمد ؟ تحرم على نفسك ما أحل الله لك

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

(التحريم الآية ١)

وما أنت بمرضيهن مهما جاملت ، وهن لم يجاملنك ، حتى لو طوحت بها فى الوادى السحيق كما طوح إبراهيم بهاجر وولدها إسماعيل !

وهن لم يجاملنك حتى فى موت إبراهيم !

* * *

أرأيت يا محمد ، أنك حين استرضيت حفصة بنت عمر ، بتحريم مارية أم ولدك ، على نفسك ، واشترطت عليها ألا تذيع ؛ أرأيت أنها نفذت عهدك وطوت فى قلبها سرك ؟

المرأة هى المرأة ، إلا من عصم الله ، وزوجاتك أمهات المؤمنين ، غيورات عليك ، ولا تطيق حفصة أن تطوى صدرها على نار غيرتها ، ولابدَّ لها أن تفضفض عن نفسها ، وتتناجى بهمها إلى زميلتها عائشة بنت أبى بكر .

ولا سرَّ مودعٌ بين ثلاثة ، فقالت عائشة لصفية ، وقالت هذه لتلك ، وقالت تلك للأخرى .

* * *

والنبى ليس خاليا لمثل هذه المماحكات بين الضرائر .

فله من أمر المسلمين ، ومن الرسالة ، ومن شئون العبادة ، ومن تصريف الناس ، مالا يبقى من وقته لهذه أو تلك .

فاغتم لذلك ، واعتزلهن فى خلوته ، وأقام مولاه رَبَاحًا أبا بلال على باب الخلوة ، لا يسمح لزائرة ولا زائر ، واعتكف شهرًا كاملاً ، حتى تحدث الناس ، وخمَّنوا ، وظنوا أن النبى مطلق زوجاته جميعًا .

* * *

وتلك أزمة ، ترُج النبى ، وتطلق الألسنة الحداد عليه وعلى نسائه ، وتهز المجتمع الإسلامى ، وما يزال فى بدء حياته ، وطراوة شبابه .

* * *

ومَنْ لهذه الأزمة ، يدركها قبل أن تستحكم وتستفحل ويفوح ريحها ، ويعلو دخانها ؟ مَنْ لها غير عمر ؟

لقد استأذن على النبى ، فما أذن ، فرفع صوته ، فأذن له ، ودخل عمر ، ورأى من حال النبى ما أبكاه ، فبكى .

وعمر بارع ، فما هذا بالموقف الذى ينفع فيه البكاءُ ، وإنما هو المواساة والتفاهم والإقناع .

وحاور النبى وداوره ، حتى أذهب عنه غمه ، وسرَّى همه ، واستشفع فى النساء المخطئات .

وقال يا رسول الله إنَّ نساءك ، إن كنَّ غيورات ، فإنَّ غيرتهن عليك وليست غيرتهن إلا حبا فيك ، واحتفاظا بك ، واستئثارا بشرف المثول بين يديك .

* * *

﴿ وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَٰذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ ۝ إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ﴾

(التحريم الآيات ٣/٤)

﴿ عَسَىٰ رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا ﴾

(التحريم الآية ٥)

وخرج النبى من اعتكافه ، وبارح خلوته ، وعاود نساءه ، وقد رجعن إليه واعتذرن من جرأتهن عليه .

وعرفن أن الغيرة نار ، وما يجدر بهن ، أن يزدْن النار لهيبًا .

وقانا الله نارها !